سنجور

مختارات من آثاره.

قام بدراستها وتعريبها الأستاذ عبداللطيف شراره.

قدم للكتاب الأستاذ سعيد عقل.

سنجور شاعر ومناضل من إفريقية أسمع صوتها ضمير البشر لا يستثنى من هؤلاء الذين صلبوها ونهبوها وعوقوها فعلمهم سنجور الحب فأخذوا بنبلها وإن كان الكثيرون منهم لم يكفكف نبل إفريقية أطماعهم.. ولكنهم، أفاقوا... على كل حال.

الافريقى له لون الليل الجميل ولكن الافريقى بعقله وقلبه، إنسان.

ليس الحر من له قدرة على القتل والختل إنما الحر من يصفو ويحنو.. من يسمو ويأسو.. من يضفى ويعطى.. وكم أعطت افريقيا دافقا من الخير... ومساحات من الأرض فى جود بغير حدود..

هذا حين أعطت أوربا بعقلها ثم ازدهاها العقل فاعتدت به وحده وهنا أجدبت الروح.

عرف سنجور افريقيا معرفة الابن، أمه الحنون.. وتعلم فعرفها مرة أخرى والحب فى هذه المرة كما يقول المتصوفة علم بالمحبوب..

وكان ابن القارة السوداء، فى عرفهم، فجرا.

وكان ابن القارة التى أدمتها الأشواك، وردا.

وكان سنجور بين الأسماء العالمية زهرا ورندا.

افريقيا قارة الغابات العذراء، روحها عذراء أيضا وهذا سر بكارة الاحساس فى شعر سنجور وشعوره.

افريقيا فى عين الأوربيين المستعمرين قارة العناصر السوداء من البشر، ومسرح المخلوقات العجيبة من الوحوش والسباع والأفاعى والزرافات ومستودع الكثير من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمواد النادرة والماس فى الجنوب.

بعين النهم رأوا افريقيا ولكن لم يعرفوها.. لم يفهموها.. لم يسبروا أعماق نفسها.. أعماهم الطمع والجور.. ثم أصاخوا..

فإذا بصوت من السنغال.. رقيق لأنه شاعر

واثق ووثيق لأنه مناضل وعالم.

إنه سنجور.

مستحيل أن تنطمس أفريقيا

مستحيل أن يغيب الحق وان التمس للتعبير لغة غير اللغة الأم. المثال.. سنجور.. تكلم الفرنسية فى أجمل صورها ومع هذا كانت شخصيته الافريقية أقوى من أن تحجبها اللغة الفرنسية فإذا بالفرنسيين يتعلقون به ويطلقون اسمه على الجامعة الوليدة.. فى عاصمة مصر، الثانية.

يرى رئيس السنغال الشاعر سنجور قول عالم ألمانى بالسلالات البشرية، (إن للسودان حضارته النابعة من بلاده المتعقدة. وإنه لواقع أن الاستكشاف العلمى لم يعثر فى افريقيا الشرقية إلا على حضارات قوية وطازجة، فى كل مكان ساده العرب، فإن الدم الحامى والمدنية الأوربية لم ينزعا عن السود الأصليين الذين يشبهون الفراشات السوداء، أجنحتهم التى كانت فيما مضى، رائعة الجمال).

ويكتب سنجور كتابه «الحرية» وكتابه «الزنوج والنزعة الإنسانية» كتابة المثقف الواسع الأفق الذى تربطه بالقيم الجمالية والخلقية فى مواطنها المختلفة، إنسانية وارفة الظلال. ففى كتابه «الحرية» يطوف بهذه الآفاق:

* الشعر الزنجى- الأمريكى

* شباب فيكتور هوجو

* بول ايليوار

* مأثرة الشعر الزنجى فى نصف قرن

* واقعية آمارو كومبا

* غنائية لاهنر

* الأدب الإفريقى بالفرنسية

* الزجل فى سورانغ

* تقدير لالبير كامو

ليست هذه العناوين كما يقول الدارس، سوى نماذج وكلها تشير إلى أن الحياة الأدبية لدى الزنوج وفى المحيط العالمى، تحتل من اهتماماته درجة عالية، وأنه يرعاها بحنو وانعطاف وتعلق ، وهو يحاول فى الموضوعات الأدبية التى يبحثها أو يلقى عليها نظرات خاصة، أن يشوقك وبقربك ما استطاع من الأدباء والشعراء الذين يتحدث عنهم.

ولكن اهتمامه الأكبر منصرف إلى أدباء الزنوج وشعرائهم وبيان ما يمكن أن يصدر عن الزنج من عطاءات فى مختلف نواحى الحياة العقلية، ثم إلى توضيح المواقف التى اتخذها الأدباء العالميون من القضية العنصرية فإذا دعته منظمة الأونسكو مثلا إلى التحدث عن «غوته» بمناسبة مرور مائتى عام على ولادته، اختار هذا الموضوع: (رسالة غوته إلى الزنوج الجدد).

يفعل هذا دون تعصب أو عنصرية مما ينحو إليه بعض الغربيين إذا كتبوا عن الشرق.

حين تكلم سنجور عن الشعر الزنجى الأمريكى قال: (لن أدهشكم إذا قلت لكم إن فن شعب ما، لا يكون أبدا، خلقا خالصا، لا علاقة له بما هو خارج عنه بل انه منبثق من تاريخه الخاص وجغرافيته الخاصة، وأصوله السلالية الخاصة).

ثم يقول:

(وزنوج أمريكا فى الولايات المتحدة لا يخرجون عن هذه السنة الطبيعية العامة. وأشعارهم مما لا يمكن أن تفهم أو يتذوقها الآخرون، إلا إذا كانت الوقائع الثلاث الآتية الجوهرية قائمة فى أذهانهم وهى : أنهم أحفاد الأفارقة الزنوج وأنهم (شحنوا) إلى أمريكا، وأنهم أقاموا هناك عبيدا طيلة قرون وقرون..)

كم تشجيني هذه الكلمات من سنجور ففي زيارتي الثانية لأمريكا سمعت أمريكيا يتكلم ثم شعر أن الموضوع أكبر منه فقدم أستاذا من أصل زنجي.. وبدأ الأستاذ الأمريكي الزنجي الأصل المحاضرة الحقيقية وما كاد يمضي فيها رائعا متدفقا حتى اغرورقت عيناه بالدموع فتظاهر بأنه سيخرج لبضع دقائق من القاعة ثم يعود.. ولا أحسبه خرج إلا كبرياء من ذكرى عذاب ألمت به مما كابده أسلافه.. خرج ليكفكف دمعا حبيسا هم بانطلاق إنه الألم لا ينسى..

زرت في أمريكا جامعة كبيرة للزنوج تنزل من نفوسهم منزلة خاصة ففي مكانها كانوا يطردون من جامعة أمريكية قريبة من الموقع استنكافا أن يتلقوا العلم فيها مع البيض فلما اعترف البيض بعد قرون، بالزنوج، بنى الزنوج هذه الجامعة في هذا المكان بالذات تسجيلا لتاريخ لا ينسى..

من أجل هذا كله ناشد سنجور أبناء جلدته أن يعتزوا بأصولهم.. حاول جاهدا أن يقربهم من الالتزام وأن يشدهم إلى واقعهم، ويحول دون ضلالهم أو تضليلهم في غيابات الأوهام التي نشرها اليهود وأتباع اليهود في الخافقين، مثل حكاية (الفن للفن) و (النزعة الإنسانية) الجوفاء من معناها، المفرغة من مضمونها، هذه النزعة التي يقولونها لفظا وتنأى أعمالهم عنها في كل بقعة من الأرض.

كان الشعر ملاذ سنجور من واقع مرير تعيشه افريقيا في ظل الاستعمار ومع هذا كان شعره يندى بالحب يجد فيه قارئه راحة واستراحا لأنه نابع من قلب إنسان حقيقي.

إن الشعر عند سنجور (ظاهرة حضارية) والحضارة ارتفاع وإمتاع وخير.

***

بعد هذا العرض نقف وقفة عند شعره. ولتكن وقفتنا عند ديوانه (القصائد) وهو أحدث دواوينه ويشتمل على ست مجموعات شعرية بالفرنسية وهي:

أغاني شبح -قرابين سوداء- حبيشات- ليليات- قصائد غير منشورة- ترجمات.

أقف عند قصيدته في نيويورك حيث يخاطبها:

ضياؤك كبريتي، وخوابيك غبراء، تصعق السماء رؤوسها وناطحات السحاب التي تتحدى الأعاصير فوق عضلاتها الفولاذية وإهابها الذي يعلوه صدأ الحجارة.

غير أنى وقد قضيت خمسة عشر يوما على أرصفة منهاتن الصلعاء لم تأخذك رعدة الحس إلا فى نهاية الأسبوع الثالث وكأنها وثبة فهد عليك.

خمسة عشر يوما بلا بئر ولا مرعى، وطيور السماء جميعها تهاوت فجأة وماتت تحت رماد السطوح

لا ضحكة طفل يحمل زهرة، ويضع يده فى يدى الناعمة.

لا نهود أم كاعب.. كل ما هنالك سيقان نابليون

سيقان ونهود بلا عرف ولا رائحة

لا كلمة رقيقة فى غياب الشفاه، وليس إلا قلوب اصطناعية يدفع لها الثمن من عملة صعبة قاسية.

ويشعر سنجور بالوحدة فيهتف وبه من الألم، عاصف :

أنا وحيد

أنا وحيد فى السهل

وفى الليل

مع الأشجار المنكمشة من البرد

التى تتضام بعضها إلى بعض.. وأكواعها فى أبدانها.

أنا وحيد فى السهل

وفى الليل

مع ايماءات اليأس المحزن التى توميء بها الأشجار إلا أن أوراقها تركت الجزر المختارة.

أنا وحيد فى السهل

وفى الليل

أنا وحدة أعمدة التلغراف

على الطرق النائية الجميلة الطويلة المقفرة.

أنتقل الآن إلى حوار خطير الدلالة، دار بين سنجور وبين فرنسى.. تستمع إلى سنجور يروى بألفاظه هو:

(كنت مرة أحاور أحد أصدقائى من الفرنسيين، وقد دهش أنى لا أريد أن أرى فى الزنوج الأفارقة قوما «بدائيين» على الرغم من إطلاق النعت الهوميرى عليهم أنهم جذابون، محببون» فاعتقد أن عليه إنهاء الحوار معى، بهذه العبارة: (أعترفوا أخيرا أننا أتيناكم بالحضارة!) وكان جوابى له:

(لا.. على وجه الدقة.. أتيتمونا بحضارتكم، دعونا نأخذ منها أخصب وأحسن ما فيها، وتحملوا منا رد الباقى).

سخرية لا تخفى من سنجور.. سخرية من الصلف الأوربى والغربى.

لقد نسوا ما أخذوا منا مادة وروحا

ونسوا أيضا الجانب المدمر من حضارتهم وهو ما يعنيه سنجور بكلمة «الباقى» فى عبارته (تحملوا منا رد الباقى)

***

حوار يجب أن نقف عنده طويلا

إنه قضية.

إننا أمام مواجهة ذات أبعاد

إنه التحدى الحضارى

لقد نسوا حضارة مصر الأفريقية أو أفريقية المصرية أعرق الحضارات وأعمقها وأغناها.